عمران
للدراسات الاستراتيجية
OMRAN
For Strategic Studies

تقدير موقف

حول حملة عاصفة الحزم

يمكننا أن نصف حملة عاصفة الحزم بأنها رد متأخر على التهديد الوجودي الذي شكّلته إيران على النظام الخليجي، ولكنه بالمقابل ردّ ضروري حتمي، يؤسس لحقبة جديدة.

أفسح الغزو الأمريكي المجال أمام إيران لتلبية طموحاتها التوسعية في المنطقة، وتبنت طهران على إثره سياسةً صلبة في التعامل مع جيرانها العرب، فأتقنت إعداد مليشيات موالية للمرشد الأعلى في بلاد الجوار وأقحمتها في محاربة مصالح أعدائها فيها، مؤسسةً لحقبة مواجهة واستنزاف مستمر يضبط الحرس الثوري إيقاعها وتسيطر أذرعه الإقليمية على أحداثها موقعةً القوى العربية في فخ ردود الأفعال. وفي المقابل اعتمدت الأخيرة في اعتقادها، على موقف الولايات المتحدة الثابت في الدفاع عن مصالحهم المشتركة في المشرق العربي، إلا أن سياسات واشنطن عكست منهجاً معاكساً أدّى في المحصلة إلى تمكين إيران في العراق أولاً، وشجعها لاحقاً على التوغل في كل من لبنان وسورية واليمن وفق معادلة جديدة من نوعها في المنطقة.

عززت أولويات إدارة أوباما في المنطقة بدورها شعور الأنظمة العربية أن سلوك واشنطن أخل بمعادلة التوازن في المشرق، واعتبرت سعيها الحثيث لإبرام اتفاق نووي مع إيران تجلياً واضحاً لذلك. وأتى توغل الحوثيين الأخير في اليمن وسيطرتهم على صنعاء وزحفهم إلى الجنوب بمثابة إنذار أخير لدول الخليج، يستلزم منها اتخاذ موقف حازم من تمدد إيران وإلّا فنهاية محتمة لثقلهم في المنطقة وتهديد مباشر لأمنهم القومي.

لا يمكن اعتبار امتداد إيران الأخير في اليمن بمثابة تكتيك لتحسين تموضعها على الجبهات الأخرى، وإنما جزء أصيل من استراتيجيتها الأوسع في إحكام سيطرتها على المنطقة. غير أنه يمكن أن يعتبر خطأً جسيماً في هذا التوقيت وضمن هذه الظروف، وأعماها غرورها عن الإحاطة فيه. وأخطأت طهران حساباتها حقيقةً في الاتكال على موقف الإدارة الأمريكية المراقب وزهدها بالنظام الخليجي القائم، كما أسأت قراءة سياسة الرياض الجديدة ودرجة الحزم في قراراتها، وتجاهلت كل ما أشارت إليه التغيرات الداخلية التي أحدثها الملك سلمان بن عبد العزيز.

يمكننا أن نصف حملة عاصفة الحزم في هذا السياق بأنها رد متأخر على التهديد الوجودي الذي شكّلته إيران على النظام الخليجي، ولكنه بالمقابل ردّ ضروري حتمي، يؤسس لحقبة جديدة يشترك فيها جميع الأطراف بالأخذ بزمام المبادرة، ولا تنحصر تداعياتها على اليمن، فهي منعطف بارز في المنطقة ككل، ستساهم في إعادة الاصطفافات في الفاعلين داخل الجبهة العربية وبينها وبين جيرانها الفرس والترك.

قد يدفع تواقت الحملة مع انسداد في ملف المفاوضات على النووي بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية بعض المحللين إلى الاعتقاد أن عاصفة الحزم جرت بالتنسيق مع واشنطن، إلا أن المعطيات الأولية واستمرار المفاوضات بعد انقضاء مهلتها الأولى تشير إلى إعلام الولايات المتحدة بحملة حزم وليس أخذ أذنها، وربما الذي حسم التردّد الأمريكي في تحمّل هذه "الجسارة" الخليجية هو الصلف الإيراني ودفع الحوثيين للتوجه نحو عدن، مما ضيّق النطاق الزمني على الولايات المتحدة للتفاوض مع دول الخليج على طبيعة الحملة ومحاولتها تعظيم فرص استثمارها والاستفادة منها في تليين موقف طهران.

تحدّيات عاصفة الحزم

ثمة تحديات إدارية بحتة في الحملة، إذ ليس لدى قيادة الحملة أي سجل عن نجاحات عسكرية سابقة، ولو أنها تلتقي مع ترحيب شعبي واسعٍ داخل اليمن وعلى الصعيد الإقليمي أيضاً. أمّا عسكرياً فالتحدي يكمن في قدرة الضربات الجوية على إحداث فرق نوعي على الساحة الداخلية، حيث أثبتت التجارب السابقة محدوديتها بعد تلاش عامل المفاجأة. وتستطيع الضربات الجوية تحييد قدرة الحوثيين على استهداف مصالح جيرانها بالأسلحة التقليدية، وهذا ما حققته طيارات الحلف العربي بتدمير منصات الصواريخ الباليستية، بالإضافة إلى تحييد السلاح الجوي اليمني. كما يمكنها أن تحمي بعض العقد الجيوسياسية الهامة كمضيق باب مندب وميناء عدن والحديدة ما دامت على الأطراف وليست في العمق اليمني. إلا أنها في نهاية المطاف تحتاج إلى قوى برية تستطيع في البداية صد هجوم الحوثيين وقوات علي عبد الله صالح، وثم دفعهم إلى قواعدهم لاحقاً. ورغم إبداء كل من مصر والباكستان استعدادهما لإقحام قواتهم البرية في المعركة، إلا أن صعوبة تضاريس المنطقة تستوجب دعم قوى محلية بإمكانها القيام بهذه المهمة، وهنا يكمن التحدي الحقيقي.

أمّا على الصعيد اليمني الداخلي فينبغي على السعودية أن تدرك جيداً أن الموالين لعلي عبد الله صالح جزء من نسيج المجتمع اليمني، وأن الحوثيين ميليشيا موالية لإيران، وأنهم لا يمثلون حزباً سياسياً أو الزيديين أو أي قبيلة بعينها، بل مجموعة وظيفية تتستر بأغلفة ثقافية دينية. ويبرز هنا التحدي الذي يواجه الإدارة السعودية في تجنبّها تأطير الحملة بإطار مذهبي ومواجهة بين السنة والشيعة، وهو تحدّ حقيقي بسبب طبيعة الثقافة السائدة في المملكة التي ساهمت في تطييف صورة الصراع في سورية، فكيف واليمن جارتها وخاصرتها الاستراتيجية.

وفيما يخص الساحة الخليجية الداخلية فمن الحكمة بمكان التعويل على التكاتف السياسي وتقديمه على التكتيك العسكري في إنجاح الحملة، فالأخطاء على مستوى الأخير يمكن أن تصحّح وأن تصوب، في حين أن أي نشوز في الأداء السياسي يسهل على إيران استثماره. وتتلخص التحديات السياسية التي تواجهها الحملة بالتالي:

1. استقطاب مواليي علي عبد الله صالح وابنه، وتخفيف حدة الاستقطاب المجتمعي؛
2. ضمان تماسك الأطراف المشاركة في الحملة، والحسم مع من لم تزل تربطه علاقة حسنة مع فلول النظام السابق؛

3. قدرة السعودية على ضبط بيتها الداخلي، وضرورة استمرار الالتفاف حول قيادة الملك سلمان من العائلة المالكة المصاحب للالتفاف الشعبي في بيعته في داخل السعودية، وكذلك الاصطفاف الشعبي الإقليمي؛
4. حالة التناقض التي تثيرها مشاركة نظام السيسي الذي ارتكزت شرعيته على قمع التيارات الوطنية والإسلامية في مصر، في حين أن نجاح الحملة يستوجب تطبيع العلاقة مع التيار الإسلامي بما فيه جمعية الإصلاح في اليمن؛
5. الموقف من الربيع العربي وما يثيره من خلافات داخل الأسرة الخليجية، حيث أنها لم تزل في مجموعها غير عاقدة العزم على إزهاره وتكتفي بما يحقق وقف تمدد إيران فحسب.

مآل عاصفة الحزم

رغم ما أظهرته طلائع الحملة من نجاحات أولية وتحقيق أضرار جسيمة في البنية العسكرية لقوات الحوثيين وموالي علي عبد الله صالح، إلّا أن جميع المعطيات الموضوعية تشير بوضوح إلى تعقد الحملة العسكرية، يبرز فيها مشكلة التنسيق بين أطرافها المتعددة، وصعوبة مواجهة التشكيلات الميلشياوية في أرض اليمن الجبلية. كما أن الحملة ليست بمعزل عن وقوع طائراتها بأخطاء قد يذهب ضحيتها مدنيين، مما سيشكل ضغطاً سيمارسه أدعياء القومية على قيادة الحملة، ولن تتوانى إيران عن استثمارها والاستفادة منها. كما أنه من المحتمل أن يؤثر غياب عامل الخبرة لدى قيادة عاصفة الحزم على أدائها العسكري، وهذا ما تنتظره طهران لتأكيد تفوقها العسكري والتي تعول بدورها على انتصارات تكتيكية محدودة لاستثماره في أي محادثات سياسية مستقبلية.

وبناءً على ما سبق أظهرت السعودية قدراً كبيراً من الحكمة في عدم ادعائها الحسم في اليمن، وإنما دفع الحوثيين وحلفائهم إلى الجلوس على طاولة المفاوضات ضمن ظروف متكافئة، غير أن مطلب تسليم الحوثيون لسلاحهم يعني عملياً أن الحملة مفتوحة زمانياً، لأنه بمثابة استسلام كامل لهم، ولديهم بالمقابل من التجذّر الاجتماعي ما يحول بينهم وبين تجريدهم من السلاح بسهولة. كما أنه من المرجّح متابعة إيران لخياراتها التصعيدية، وورقتها الكبيرة المتبقية هي البحرين. وأخيراً إذا ما افترضنا أن الولايات المتحدة كانت قد اتخذت قراراً منذ نحو عامين يقتضي الزهد بدول الخليج والسعودية وأنه لا مانع لديها من تغير طبيعة النظام فيه، فسوف تسعى بشكل طبيعي إلى إطالة الصراع اليمني. ولذلك يمكن أن تتحول الحملة المبادِرة إلى استعصاء، والمرجح أنها مقدمة لصراع طويل لا مفر منه يغذيه الغرور والصلف الإيراني من جهة، وتخاذل أنظمة عربية تعزز تنسيقها مع أعداء المنطقة من جهة أخرى.

خاتمة

ثمة ارتباط غير مباشر بين الجبهة اليمنية والجبهة السورية، باعتبار أن كلاً منهما هو موضع أساس للمواجهة مع التمدد والنفوذ الإيراني. ولكن لا يوجد مقدمات تشير إلى استمرار النهج السعودي على جبهات ثانية، حيث يكفيها تأمين منطقة حماية في جنوب سورية عبر الوسيط الأردني. أمّا احتمال إطلاق يد هذه القوى للتمدّد شمالاً والاتصال بالريف الدمشقي فهو أسير تفاهمات دولية وخارج عن نطاق تأثير القوى الإقليمية لأنه يهدّد بسقوط مفاجئ للنظام السوري. ومقابل اكتفاء السعودية بجبهة اليمن بكل تعقيداتها، فيبدو أن التفاهم الإقليمي الدولي ترك جبهة الشمال السوري بكل تعقيداته للإشراف التركي وتقديره للخيارات نحوه.

وأخيراً من غير المتوقع توقع تراجع وتيرة التصعيد الإيراني وانكفائها على نفسها، فطهران مرتهنة سياسياً على مستوى الداخل لتبعات تمدّدها الواسع، وأي تقصير في الإنجاز سيؤثر حتماً على شرعية نظامها، الأمر الذي يغذي نزقها الإيديولوجي وميلها إلى إكمال المشوار في كل المحاور التي فتحتها.